«ثمّة شيء يبقى بعد ان يموت الجسد. هذا الشيء، الذي تسمّونه ضميراً، لا يموت مع موت الجسد، بل يطير ويلتصق بقبة السماء... ان لهذا الشيء خاصة جاذبة، بحيث يجذب كل ما يشبهه»[٢٠].

وهبا، هذا، هو الذي تحدّى الابن بعد الأب وقضى عليهما. وذكر بعض المصادر، بالاضافة الى ذلك، ان مسرحية «القبعة والنبي» التي كتبها غسان في فترة كتابة روايته «الشيء الآخر»[٢١]، والتي بدأت فيها قوى أكبر من الشخصيات تتحدّى الجميع وتفرض ارادتها بشكل وجودي قاس؛ هذه المسرحية اراد غسان ان ينشرها للمرة الاولى بعنوان هو «الشيء»، ثمّ عدل عن ذلك.

وعودة الى رواية «الشيء الآخر» نفسّر ان هذا الشيء، الآخر، وقد مثّل، في بعض اعماله، القدر، أو المجهول، او القوة الطاغية في الداخل أو الخارج؛ هذا الشيء كان هو الذي قتل ليلى الحايك (الرمز)؛ ثمّ راح يحوّل كل شيء الى نقيضة، في سبيل احكام الحصار على المتهم.

ولعلّ ما يفيد، في هذا السياق، ان نكرر ان الخطاب الرئيس عند غسان كان تحدي هذا «الشيء»؛ وهو يعلم، تمام العلم، أن تحديه له يساوي القضاء عليه، على الرغم من انه (الكاتب داخل النص أو خارجه) يدرك ان هذا «الشيء» له من القدرة ما يستطيع بها القضاء على صاحب هذا الموقف. وقد رأينا انه فعل ذلك ـ التحدي والتمرّد ـ بالاعلان عن ذلك صراحة في مسرحيتي «الباب» و«القبعة والنبي»، أو بايثار الصمت في رواية «الشيء الآخر»، وكلاهما، الاعلان والصمت، سلاح فعّال، وموقف.

الرواية المقنّعة

على ان أهمّ هذه الملامح هو القناع الكثيف الذي اسدله الراوي على مشهد الجريمة، حتى ليتخبط النقاد والكتّاب حول هذا العمل. وأقرب نمط اليه يمكن ان يكون الرواية المقنّعة. وعبورا فوق شرح طويل لهذا النمط / المصطلح[٢٢]، فانه يمكن ان يحدد زمان الرواية بأنه زمان القضية الفلسطينية، بجميع اطوارها حتى منتصف الستينات؛ امّا المكان، فانه هذه المنطقة الحيّة على الارض العربية التي تعرف بأرض فلسطين؛ امّا الشخصيات، فانه يمكن التعرّف عليها بسهولة مع بعض التجاوز الضروري. فالمحامي / المتهم، الفلسطيني، الحائر، الباحث عن القانون، يقع في دائرة الحيرة بين العدل والظلم؛ ثمّ في ليلى الحايك التي يمكن التعرف عليها، ببساطة، في حياتنا العربية، فقد تكون القضية، أو الارض المحتلة، أو الحق الضائع؛ ثمّ هذا «الشيء» المسؤول عن ضياع الحق العربي، وهو ما ينسحب على الغرب المسؤول عن استزراع اسرائيل في أرض لا تنتمي اليها، أو ـ حتى ـ اسرائيل بشكل مباشر التي ما زالت بتعنّتها تحبك مؤامرة للاجهاض على انتفاضة الارض المحتلة، وذلك باصطناع خلافات وهمية بين اسحق شامير وعيزر وايزمان، من جهة، أو خصومات محسوبة بين حكومة الائتلاف وحزب العمل، من جهة أخرى.

ومهما يكن، تظل الرواية المقنّعة أقرب الانماط الى فهم هذه الرواية[٢٣]، والاقتراب من عالمها البوليسي الذي يخفي عالماً مأساوياً لضياع الحق العربي في العصر الحديث.

خاتمة

على أية حال، ان رواية «الشيء الآخر»، تظل جزءاً من أدب مرحلة ما قبل هزيمة العام ١٩٦٧